نظرات في كتاب

"أبو العباس أحمد بن شَكيل الأندلسي شاعر شريش"

تقديم وتحقيق: حياة قارة

الناشر: المجمع الثقافي- أبو ظبي ١٩٩٨

د.عبدالإله نبهان

جامعة الإمارات العربية المتحدة-العين

أبو العباس أحمد بن أبي الحكم يعيش بن علي بن شَكيل – بفتح الشين- الصَّدَفي الأندلسيّ من أهل " شريش" كان مولده سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وتوفي مُعْتَبطاً سنة خمس وستمئة، وكانت وفاته في رَيْعان شبابه وإبّانِ فتوّته ولم يجاوز السابعةَ والعشرين.

أخذ ابنُ شَكيل عن مشيخة بلده، فدرس العربية كما درس علم الكلام وسمع الحديث من أبي الحَسين بن زَرْقون (ت٦٢١هـ) كما صحب القاضي أبا حفص عمر بَن عبد الله السُّلمي (ت ٦٠٣هـ) ... فعلى يد طائفة من أعلام القضاة والمحدّثين تكوّنتَ ثقافته الشرعية والحديثية واللغوية حتى إنه وَليَ قضاء بعض الكُورِ على حداثة سنه في مجال القضاء... وكان يقول الشعر، وكان شعره مدوّناً مجموعاً في ديوان لأنَّ ابن الأبّار(ت ٦٥٨هـ) قال في" تحفة القادم" : وله ديوان شعر وقفت عليه.[١]

وغاب ذكرُ ابن شَكيل في زحمة الأسماء في تراثنا العربي، ولم يذكر إلا عَرَضاً، حتى إن " نفح الطيب " تلك الموسوعة الأندلسية الضخمة لم تذكر له سوى مقطوعتين، كل مقطوعة بيتان.

لذلك كله كان حَسَناً وجميلاً ورائعاً أن نهد المجمع الثقافي في (أبو ظبي) بدولة الإمارات بنشر شعر ابن شَكيل، وجعله الكتاب الأول في السلسلة الأندلسية التي ينوي إصدارها لتولد من جديد كتب الغَرْب الإسلامي في أقصى الجنوب الشرقي من جزيرة العرب.

جُمع شعر ابن شَكيل على يد الباحثة " حياة قارة " من أحَد عشرَ مصدراً[٢]، وذلك لأنّ ديوانه الذي أشار إليه ابن الأبّار قد فُقد خبره وعفا أثره..

لذلك لم يكن من سبيلٍ إلى إحياء شعره إلا بجمعه، وقد حالف الحظ الباحثة عندما " وقع بين يديها مخطوط هام يحفظ لنا ثروة أدبيةً هامّة عن عصر المرابطين والموحدين، حيث تَمثّل أشعار أبي العباس أحمد ابن شَكيل جزءاً هاماً من هذا المخطوط"[٣] والمخطوط المشار إليه هو كتاب " كنز الكتّاب ومنتخب الآداب" لأبي إسحاق إبراهيم البونسي، وهو من محفوظات مكتبة النمسا (كرافت١٤٧).

لم تقدم لنا الباحثة أي وصف لهذا المخطوط، حتى إنها لم تذكر شيئاً عن مؤلفه ولم تحدد تاريخ وفاته على الأقل، ولم تضع أي صورة عن أي صفحة منه كما يفعل أصحاب صناعة التحقيق..

على كل حالٍ قدّم لنا هذا المخطوط من شعر ابن شكيل ٣٧٩ بيتاً نُقل معظمها إنْ لم يكن كلّها من خطّه كما يصرح البونسي، وهذه الكمية كانت من أصل شعره البالغ ٤٦٧ بيتاً، أي إن عشرة مصادر قدمت للباحثة(٨٨) بيتاً فقط وقدم هذا المخطوط وحده معظم شعر ابن شَكيل المجموع.

قامت الباحثة بضبط الشعر ضبطاً تاماً ورقمت القصائد كما رقمت الأبيات في كل قصيدة وفسّرت المفردات اللغوية وقوّمت بعض ما وقعت عليه من التصحيف وأشارت إلى ذلك في حواشي التحقيق، وأخرج الديوان أو الشعر المجموع بتنفيذٍ أنيق وضبط تام وغلاف جميل، وقد قرأته مسروراً بإحياء شعر شاعر أندلسيّ ووقفت على بعض أخطاء، منها ما هو غلط طباعّي واضح، ومنها ما هو عن سهو، فآثرت التنبيه عليها جميعاً ضنّاً بهذا الأثر الجميل في إخراجه الأنيق أن يكون فيه ما يَعيب وخصوصاً أن بعض قضايا الضبط تقود إلى خللٍ في الوزن أو فسادٍ في المعنى... وبعد ذلك التفتّ إلى الدراسة التي صدّرت بها المحققة شعر ابن شَكيل، ولم تخلُ تلك الدراسةُ من هَنَاتِ الطباعة ولست بسبيلها، وإنماء الذي أثار اهتمامي تلك الأحكامُ النقديةُ التي أُطلقت كيفما

اتفــق، وذلــك المنهج التبجيليّ، البعيد كلّ البعد عن الدراسة الموضوعية، وتلك العــبارات التــي تَلْــبَس لَــبُوسَ النقد وليست منه ولا طائل وراءها ولا معنىً يستفاد... فأشرت إليها متمنياً أن ترى الباحثة وقْعَ دراستها لدى الآخر والإنسان لا يرى نفسه إلا بمرآة، وبناءً على ذلك فقد جعلت البحث قسمين، خصص الأول لتتــبع هفوات ضبط الشعر وما اعترى بعضه من تصحيف وما ألم به من غلط طباعي معتمداً ذكر رقم القصيدة أولاً ثم تذكر أرقام الأبيات التي عُلّق عليها في القصيدة المشار إليها ورمزت للقصيدة بـــ (ق) وللبيت بـــ (ب). أما القسم الثاني فقد خُصص للتعليق بإيجاز على الدراسة التي تقدّمت شعر ابن شَكيل.

ق١:

ورد قــول ابــن الأبّــار مقدّماً القصيدة " وله في مقتل أبي قَصَبة... مع قصيدة" والصواب: من قصيدة.

ب٩: ورد صدره: قد أحزنته شُماتات (بضم الشين) والصواب فتحها.

ق٢:

ب١٠: ورد: تأويننني هَمي، والصواب: تأوّ بني- بالباء الموحّدة –

ب١٥: ورد على هذا النحو:

ألا مِــثْلَ لي فإنّه لي معجُزٌ وإني لأمثال الورى لَضروبُ

قالت المحققة: في الأصل (إنّه) وأضفنا الفاء ليستقيم الوزن.

قلت: إضافة الفاء من غلط القراءة، والصواب في الإنشاد:

ألا مَثَلٌ لي إنّه ليَ معجزٌ .....

فالشاعر يبحث عن مَثَلٍ يعبر عن حاله لا عن مِثْلٍ له بدليل قوله قبله:

أقول ونفسي والأسى قد تمازجا وقلبيَ من حَرِّ الفراق يذوبُ

ب١٩:

أعــاوِدُ لــثْمَ الــترْبِ فيه كأنّه لرشْفي ثغرّ أغرّ شَبيب

والصواب: شنيبُ، بالنون.

ب٢٠: أقام عليٌّ والصواب:عليٌّ

ب٣٥:

وليس كمفقودٍ تقادمَ عهدُه وغطّى عليه مَسْحَنَا ومشيب

لــم تعلّق عليه المحققة وواضح أن كلمة(مسحنا) لا دلالة لها هنا، وأعتقد أنهــا محرّفة عن كلمة ما، وهو بمعنى (وغطّى عليه منكرٌ ومشيب) وهو يريد بدلالــة ما تقدّمه أن المرثيَّ كان شاباً، وأنَّ المصاب به كان رُزْءاً فادحاً، فالأمر لــيس كفقــدان شــيخٍ هــرمٍ مســنّ عظّاه الشيب ومظاهر الهرم، وقد وردت كلمة(منكر) بهذا المعنى:

قالت عميرة: ما لرأسك بعد ما نَفِد الزمان أتى بلونٍ منكر؟

أعُميَر إنّ أبــاك شيّــب رأســه كرّ الليالي واختلاف الأعْصُرِ

وهذا مما أنشده ابن سلاّم الجمحي في مقدمته لطبقات فحول الشعراء.

ق٣:

ب١٠: ورد عجــزه: (ولــو رمتني جميع العَجَم والعرب)بتحريك عين (العجم)

والصواب: (العُجْم) بضم العين وسكون الجيم كيلا ينكسر الشعر.

ق٥:

ب٢: ورد عجزه: (فيا خيرَ مُنْعىً وشَرَّ نُعاتِ)

والصواب: (فيا خير مَنْعيٍ) وبه يستقيم الوزن والمعنى.

ب٦: ورد فيه (للحيأ) مهموزاً والصواب: (للحيا).

ب١٢: وردّ فيه (إسحاق) منوناً بالكسر:

كمـــثلِ أبـــي بكـــرٍ ومـــثل سَـــليلهِ خليلـــي شـــعر أبـــي إســـحاقٍ خيرِ لِداتي

والصواب (إسحاقَ) بالفتح على المنع من الصرف وبها يستقيم الوزن.

ب١٦: ورد على هذا النحو:

فَقُلْ للمنايا قد وتَرْتِ سراتَنا سَراتٍ بظَنّي منهم بتراتِ

وعجـــز البيت وردت فيه (بظَنّي) بهذا الضبط العجيب ولا معنى له بها، ولعل هـــذه الكلمة فعل أمرٍ من الظنّ بمعنى اليقين وتكون بناء على ذلك (فَظُنّي) أي أيقنـــي أيتها المنايا بأنّهم سوف يدركون ثأرهم منك، وذلك بدليل مخاطبة المنايا في البيت التالي:

فلو كنتِ شخصاً ما اجترأتِ عليهمُ وجنّبتهم عن هيبةٍ وهباتِ

ب٢١: ورد فيه(... وما هوِ آتٍ...) بكسر واو (هو) والصواب فتحها.

ق٦:

ب٢: ورد صـــدره: (عـــن درّة جلـــى الضريح جمالها) والأفضل أن تشدد لام (جلّى).

ب٩: ورد كما يلي:

فاصبرْ، إنّ الحرّ مَنْ إنْ تدْعُهُ للصّبرِ طابت نفسُه وتسلّتِ

وصدر البيت مكسور، وصوابه(فاصبرْ فإنّ الحرّ....).

ق٨:

ب٤: ورد كما يلي

تخدي النجائبُ حولاً في نفائفها لا يأتيهنّ إعياء وتطليحُ

والصـــواب: (فـــي نفانفها) وقد فسّرتها المحققة على الصواب في الحاشية، أما عجز البيت فهو مكسور بهذه الصورة وصواب البيت كما أقدّر: (لا يأتَلِيهنّ) أي لا يقصّر ولا يبطئ بهن إعياء ولا تطليح.

ب٩: ورد صدره: (آل النبيّ لقد سُقِيتمُ عللاً) الأفضل أن تشدّد القاف (سُقِّيتُمْ).

ب١٠: ضبطت فيه (أشلاء) في صدر البيت بالفتح:

(صلّى الإله على أشلاءَ مُنْجَدِلٍ).

والصواب بالكسر لأنها غير ممنوعة من الصرف، ولو كانت ممنوعة لصرفت لإضافتها...

ب١٥: ورد كما يلي:

لم يتّقوا الضربَ بالأكتافِ إذْ صُرعوا بل النجيعُ على اللبّابِ مَنْضُوح

والصواب: اللبّاب، وبالتاء المثنّاة.

ب٢٥: ورد صدره (وبالِسَاني عاوِدْ مدحَه أبداً)

والأفضل وضع فتحة على الياء: (ويا لسانيَ)

ق٩:

ب٦: ورد صدره (أصبح منبتُ سيرِهِ فله)

وهو على هذا مكسور الوزن ولا معنى له ويمكن أن يكون هكذا:

(أصبح منبتٌ سَيْرُهُ فله) فيستقيم من المنسرح ويكون اسم أصبح مستتراً و(سيرُهُ) مبـــتدأ مؤخر و(منبتٌ) خبر مقدم، وتكون الجملة خبر (أصبح) ويمكن أن يكون أيضاً (أصبح منبتّاً سيرُهُ فَلَهُ).

ب٧: ورد صدره (شاهدٌ ما غاب في سريرته)

والصـــواب أن يكـــون الضبط (شاهدَ) على أنها فعلٌ ماضٍ وبها يستقيم الوزن ويصحّ المعنى وتصبح (شاهد) في صدر الصدر مقابلةً (طار) في صدر العجز ويستقيم البيت:

شَاهدَ ما غابَ في سريرته وطارَ إحساسُه مع الرّيح

ب٩: ورد صدره:(عرّضْ بالحق) والصواب: (عَرّضَ) بالبناء على الفتح.

ق١٠:

هـــذه القصـــيدة مـــن بحر الخفيف وردت فيها أبيات مدوّرة كتب بعضها على مقتضـــى الـــتدوير كالبيت الثاني لكنّ الأبيات ٨، ٩، ١٢، ١٣، ١٩، ٢٠، ٢١ وكلها مدوّرة لم تكتب على مقتضى ذلك...

ب١٨: ورد صدره: (ليس إلا التصبرِ أجدى) والصواب التِصبرُ

ب٢١: ورد في عجزه (منْ الله) والصواب فتح نون (منَ).

ق١٣:

ب١١: ورد فيه (فيهنُّ) الصواب (فيهنَّ).

ب١٨: ورد على هذا النحو:

يا بنت عمّي هل سمعت بماجدٍ يبكين أوتى الذّم أطعم أوْكسا

قالت المحققة: "الشطر الثاني من البيت فيه خلل وقد أوردتُه كما ورد في أزهار الرياض".

قلت ربما كانت رواية الشطر الثاني على نحو مشابه لما إذا قلنا:

" يُهَدى له ذمٌّ إنِ اطعم أو كسا "

ب٢٣:

ونسيتِ حُجْراً يومَ هيّج بالعصا أسَداً، مَنْ هاج الأسود تفرّسا

وعجز البيت مكسور وصوابه: أسداً، وَمْن...

ب٢٨: ضبطت فيه كلمة (الرضا) بضم الراء والصواب كسرها.

ب٣٤: فيه: (قالوا بنو)، والصواب: (قالت بنو) إلا إذا كان قد قالها حقاً على لغة أزد شنوءة المعروفة بلغة (أكلوني البراغيث).

ب٣٩: ورد فيه: (أحسبتمُ كلٌ) بكسر لام (كل) والصواب فتحها.

ب٤٢: ورد فيه: (يرجو نُداه) بضم النون والصوّاب فتحها.

ق١٤:

ب١١: ضبطت فيه (الردى) بضم الراء والصواب فتحها.

ب١٥: ورد على هذا النحو:

فخلّت عليّ الأرضُ حتّى كأنّما حرامٌ على الأجفان أن تتطلّعا

ولم يظهر لي معنىً في (خلّت) فربما كان الأصل (فضاقت) ولا سيمّا أن القصيدة تصوّر حزنه على جدته وورد قبله:

دعتها المنايا فاستجابتْ دُعاءَها سريعاً وداعي الموتِ أسرعُ مَنْ دعا

ب١٦: ورد على هذا النحو والضمير فيه يعود على الأرض في البيت (١٥) المذكور سابقاً:

وحَتْمٌ عليها أن تَصُوب فما هَمَتْ على مُمْحلٍ إلا أصبحَ مُمْرِعَا

وصواب العجز: (على مُمْحِلٍ إلا وأصبح مُمْرِعَا)

وبذلك يستقيم وزنه ومعناه.

ق١٦:

ب٩:

والبيتُ ذو الأستارِ تمسحُ ركنَه وُرْقُ الحمام عياذةً وتعطّفا

والصواب: (عياذَةً) بالنصب والتنوين.

ب١٣: شُلَّت يمين الملْجمّي فإنه....

والصواب: (شَلّت) بفتح الشين، وهو يريد الدعاء لا الإخبار.

ب١٤: أرتِ الشماتةُ بالوصيّ أميةً...

والصواب: أرتِ الشماتةَ بالوصيّ أميةٌ

ب١٥: ورد عجزه: يكفيك جمرةً يا أميةُ لو كفى

وبذلك ينكسر وزنه، وصوابه: يكفيك جَمْراً

ب٢٣:

لو أنّ صقراً في مكان أميةٍ لحماً لحامَ على الحسين ورفرفا

الأفضل أن تُضبْط (لحماً) بكسر الحاء احترازاً من الخطأ.

ب٢٤: ورد صدره: أو ليثاً يومَ خرّ مكانها.

وقد سقطت (أنّ) والصواب: أو أنّ ليثاً....

ب٢٥: ورد صدره: أنَّ سِرْبَ قطاً....

والصواب: أو أنّ...

ق ٢٠:

ب٦:

دعاه أناسٌ ترجمانَ ضميرُهُ وهل لبليغٍ حاجةٌ في النواجمِ

والصواب: (ضميرِهِ) بكسر الراء والهاء. وأظن أن كلمة (النواجم) مصحفة عن (التراجم).

ق ٢١:

ب٧:

شَهِدَ الزَّبُورُ بها ولا له فضلاً على المنثور والمنظومِ

الصواب: شهد الزبورُ بها ورأى له

ب١٥: ورد صدره: فإذا طربتُ إلى النسيم فنفثةٌ

والصواب: (فنفْثةٌ) بالتاء المثلثة.

ب٢٥: ورد صدره: كانت صحائفُ قفر غُفْلاً فقد...

والصواب: (كانت صحائفُ قَفْرِهِ).. وبه يستقيم الوزن.

ب٣٤:

أوْ أصهبٍ شربَ المُدامَ أديمُه فأقلّ فارسه برسمٍ قديمِ

والصواب "برسمِ بالكسر بلا تنوين. والمعنى غير واضح وربمّا كانت كلمة (قديم) مصحّفة عن (مُديم)

ب٥٩ : ورد في صدره: والمُمْحِلاتُ، بضم التاء والصواب كسرها، لأن ما قبلها يقتضي ذلك والتقدير: بشّرْ المُمْحِلات:

بشّرْ يتامى المسلمين بوالدٍ منه يحوطُ ذمارَ كلِّ يتيمِ

والمُمْحِلاتِ منَ البلادِ بوابلٍ من جوده يحيي الأنام سَجُومِ

ب٧٣: مدوّر ولم يكتب على مقتضى التدوير

ب٨٠: ورد عجزه:... سيّانَ فيه حاسدي ونعيمي

والصواب: سيّانِ، بكسر النون

ق٢٢:

ب٤: ورد عجزه: (أرْدنا نواءً عندها وهْيَ في ظَعَنْ)

والصواب: (أردنا ثواء) بالثاء المثلثة.

ب٨: ورد صدره: (وكالصقْر فوقَ السابقات اغتضت به)

وأثبتها في الحاشية (اعتَضَتْ) وقالت إنها من التعويض، وفسّرت(السابقات) بالخيول، وأظنّ المعنى لا يستقيم...؟

ب٩: ورد عجزه: (طوتْ شخْصَه في قَيْدِ شبرٍ من الكفَنْ)

والصواب: قِيدِ، بكسر القاف، لأنّ القِيد هو المسافة أو المقدار

والقَيْد: الغلّ تقيّد به اليدان....

ق٢٥:

ب٢: ورد عجزه: إذا ذكّرت ... بتشديد الكاف والصواب: (إذا ذَكَرت) بتخفيفها.

ق٢٦:

ب٦: ورد في العجز:.. فأدنى جودَه والصواب: جودِه بكسر الدال.

ب٧: ورد في العجز:... على عزّهم والصواب: عزّهم بكسر الزاي.

تعليق على التقديم:

قدّمت الباحثة لشعر ابن شَكيل وهو بين يديها محدود قليل بتقديمٍ دمجت فيه الكلامَ عن الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية وعلاقات ابن شَكيل دمجاً جميلاً، لكنّها وقعت فيما يقع فيه بعض الدارسين من المعاصرين من تعصّبٍ وتحيّز لموضوع بحثهم، فنرى الباحثة تجعل من ابن شَكيلٍ علماً بارزاً وشخصيةً متفرّدة، بل زعمت أنَّ إبداعه متميز بحقّ عن كل معاصريه، وذلك من غير ما مقارنة أو موازنة، بل من غير أن نعرف مَنْ هم معاصروه الذين تميز منهم ابن شَكيل، كما جعلَتْ منه (فيلسوفاً) وقالت بأن له نظرة إلى العالم، وقالت عن تعبيره اللغوي: إنه انفجاري[٤]، وزعمت أنَّ له عالماً شعرياً فيّاضاً، بل إنها قالت عن قصيدةٍ مَدَح بها ابنُ شَكيل القاضي أبا حفص: إنها (من روائع الشعر العربي الخالدة) وذكّرتني لغتها النقدية بلغة أولئك النقّاد الذين تحدّث عنهم الدكتور عبد العزيز حمّودة في كتابه الهام جداً " المرايا المحدّبة"[٥] ذلك النقد النرجسي الذي يريد لَفْت النظر إلى نفسه والإعلان عنها أكثر من حرصه على إضاءة النص المنقود أو المبحوث فيه، بل إنَّ بعض عباراتها الموهمة علْماً يمكن أن تطلق على معظم القصائد إن لم يكن على كلّها، فمثلاً نسمعها تقول بعد أن تُوردَ أبياتاً لابن شَكيل في المديح: " يبدو إذن أنّ القصيدة المادحة تمثّل عالماً شعرياً تنسجم فيه مجموعة من العلاقات أو الثنائيات: المستوى المعجمي، المستوى النحوي للغة، الوظيفة الشعرية، الوظيفة المعرفية، المظهر الدلالي، المظهر التركيبي..."[٦]إن تلك العلاقات التي ذكرتها وزعمت أن القصيدة المادحة تتألف من انسجام تلك العلاقات إنما هي علاقات لا بّد منها في كل قصيدة مادحة أو هاجية أو متغزلة أو راثية أو ساخرة أو ماجنة... فليت شعري أيّ قصيدة ليس فيها مستوى معجمّي ونحويّ ولها وظيفة شعرية ومعرفية ومظهر تركيبيّ؟؟ وذهبت الباحثة لتبني على تلك البديهيات التي بدت لها في القصيدة

المادحة أحكاماً عجيبة كأنّها متمخّضة عن تلك الـ(يبدو) قالت: " وإذا كان الأمر كذلك مع تلك القصائد، فإن القصائد الرثائية لا تخلو من ذلك، إذ إنّ البناء اللغوي والبناء الإيقاعي في هذا القصائد يشير إلى درجة خاصة في إدراك الوقائع والنظرة إلى العالم... إنّ إيقاع الحروف وأصوات الكلمات ومعجمها في هذه الرثائيات يكشف عن مستوىً معيّن يمثّل مستوى الوعظ والإرشاد حيث نستشفّ من رثائياته حكمةً عميقةً عن فلسفة الحياة والموت تشعرنا أننا أمام فيلسوفٍ حنّكته التجارب واختبرته السنون ولسنا أمام شابٍ في عُنفوان شبابه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره"(٧)...

فليت شعري ما الدرجة الخاصة في إدراك الواقع؟ وأيّ واقع هذا الذي تشير إليه؟ وما تلك الحكمة العميقة عن فلسفة الحياة والموت وهي مكررة وتتكرر في الشعر العربي، بل لقد أبلاها التكرار وأنفد جِدّتها، يدركها ابن العشرين كما يدركها ابن السبعين، فإنها هي هي منذ أيام لبيد وزهير تزداد عمقاً وتكتسب شفافية لدن شاعر كبير كالمعرّي، وتتسطّح مكررةً عند عشرات الشعراء... وهكذا قُدّمت الأحكام النقدية في صدر شعر ابن شَكيل وسارت على نمطٍ من الافتعال مدّعيةً مقاربةَ النص، وإنما هي متباعدة ومباينة، وكأنّي بالباحثة قد أخذت أحكاماً من التحليل اللساني والبنيوي مما يقال في نقد الرواية أو الشعر المعاصر وأرادت تركيبها ولَيَّ عنقها لتتسع لابن شكيل أو ليتشكل ابن شكيل في قالب يناسبها، ويمكن أن أنسخ نصّاً للباحثة يقدّم لنا تصوّراً عن طبيعة تقديمها النقدي وذلك كي لا أُسهب في تتبّع كل فكرة أو فِقْرة، قالت:

" ولمقاربة هذه الأشعار نقول: إن عالم الخِطاب الذي تُحيل عليه النصوص الشعرية التي قالها ابن شكيل تتشكّل من مجموعة من العلاقات تربط بين مختلف المقولات النحوية التي تعكس كفاءة شاعرنا في بناء واقع حسب نماذج صوريّة متنوّعة، ويكفي الوقوف عند هذه الأشعار المتنوعة الأغراض

والموضـــوعات لـــنلمس بوضوح توظيف ابن شَكيل للأسماء والأفعال والفضلة مـــثلاً، وهـــو توظـــيف حاول من خلاله أن يخلق نوعاً من التوازن- إن صحّ التعبـــير- بيـــن القـــيمة المرجعية والمعرفية لهذه الأشعار وبين مستويات اللغة المتنوعة: تركيبية وصوتية ومعجمية وبلاغية... وعلى سبيل المثال لا الحصر نقـــف عـــند صفة تتكرر في أشعار ابن شكيل وهي (صدفيّةٌ كِنْديّةٌ) يقول في إحدى قصائده:

صدفيّةٌ كِنْديّةٌ ترعى المنى فلربّما أكلت مُرارَ سُمومي

ومن قصيدة أخرى:

بَكرتْ تلومُكَ في النّدى كنديّةٌ صدفيّةٌ تنمي السّكُونَ وأشْرَسا

الملاحـــظ أنّـــه قد لا نجد في المستوى المعرفّي فارقاً بين هذين البيتين من الشـــعر، إلا أنّـــه في مستوى الميثولوجيا الشعرية يؤدي الاختلاف النَّحْوي بين الصـــيغتين إلى صورة كنائية عن "كندية صدفيّة" بوصفها كذلك، نعني اعتبارها فـــي حـــدّ ذاتهـــا (النســـب العربّي) وباعتبارها إشارةً إلى امرئ القيس وعالمه الشعّري.

لذلك قد لا نبعد كثيراً إذا قلنا إنّ سرّ إبداع ابن شَكيل كامن في هذا الاختيار الواعي للكلمات الذي خلق نوعاً من الانسجام بين المستويين الفونولوجي والنحْوي بشكلٍ يتناسب مع الواقع المرجعيّ الذي يعكسه مضمون القصيدة " [٨]

هذا نصّ طويل نسبياً نقلته كما هو لدالته على طبيعة هذا التقديم النقدي لشعر ابن شَكيل، فقد عرّفتنا الباحثة أن الشاعر " يوظف الأسماء والأفعال والفَضلة" ولكنْ أليست الفضْـــلة مـــن الأسماء ؟! وأي شاعر في الدنيا في أي لغةٍ من لغات العالم لا يوظّف الأســـماء والأفعـــال... وأتساءل أيضاً أين هي تلك (الميثولوجيا الشعرية) المبنيّة على

اخـــتلاف نحـــوي مزعوم في استخدام (كنديّة صدفيّة)؟! فـــ (كنديّة صدفيّة) في كلا البيتيـــن المذكورين أتت مسنداً إليه أو مسنداً في الأول ومسنداً إليه في الثاني على اخـــتلاف الـــتقدير لـــدُنْ إنشـــاد البيت مفرداً.. فأين الخلاف وأين الاختلاف وأين (الميثولوجـــيا)؟ وأين تلك الصورة الكنائية عن النسب العربي؟ وما ذلك الانسجام (الفونولوجـــي النحوي) ما طبيعته؟ ما مصدره؟ أين تميّزه قياساً لقصائد لم ينسجم فيها(الفونولوجي النحوي)؟! ولست أدري ما إذا كان هدف الكاتبة أن تستخدم هذه التعبـــيرات بغـــضّ الـــنظر عن مصداقيتها في السياق الذي تستخدم فيه؟ بل إنها اســـتخدمت مصـــطلح (الـــثورة الثقافية) معبرة به عما قام في عهد الموحّدين من إصـــلاحات، كمـــا أنها زعمت أنّ ألواناً ثقافية عربية إسلامية قد ولدت في مطلع القـــرن السابع، فأين هي؟ بل ما هي تلك الألوان؟! كل هذا الكلام لا مصداقية فيه ولا معـــادل له في الواقع.. وقد أحسست أن بعض العبارات فيها رائحةٌ ما، وكأنّها مترجمة من لغةٍ ما إلى العربية من غير ما تمكّن، وذلك كهذه العبارة " وبفضل هذه الحلقـــات العلمـــية أيضاً نكتشف بعض المداخلات والاقتراحات التي كان يقترحها الخلفاء على العلماء والأدباء الحاضرين".

ولا أحـــبّ الاسترســـال ولا أريده، وإنما كنت أبغي أنّ أبيّن أنّ هذا التقديم لا صـــلة له من الناحية النقدية بشعر ابن شَكيل ولا بغيره، وأنّه يمكن أن يقال في أي شعرٍ آخر مهما كان عصره.

أمّا ما زعمته عما وسمته بـــ (روائع ابن شَكيل) وعن قصيدته (التي تُعدُّ من روائع الشعر العربّي الخالدة) [٩]وعن كونه (فيلسوفاً) فهذه مزاعم تحتفظ بها لنفسها وتلـــك الروائع لم يدرك روعتها أحد غيرها، ويبقى ابن شكيل بعد ذلك رجلَ علمٍ وصل شاباً إلى مرتبة أن ولّي قاضياً، كان يقول الشعر شأنه شأن عشرات القضاة والعلمـــاء فـــي الأندلـــس ممـــن تزْخر بشعرهم كتب الأندلس كالإحاطة في أخبار غرناطة والذخيرة والمغرب ونفح الطيب وغيرها.. وهو يسير في شعره على النهج التقليدي الذي درج عليه الشعر العربي منذ مئات السنين قبله، كما أنه بعيد كلّ البعد

عـــن عالم امرئ القيس وعن فضائه الشعري وذلك بحكم طبيعة مجتمعه ونشأته وثقافـــته، ووصـــلته بامـــرئ القـــيس إنما هي صلة ثقافية معرفية لا يمكن أن تخرج عن هذا.

لقد قرأت مجموع شعر ابن شَكيل غير ما مرة فترك لديّ انطباعاً بأنه شعر شاعر متمكّن في نظم القريض ويحسن المعارضة، وهو يوظف ثقافته التاريخية والأدبية والدينية في إغناء شعره، ويمكن للباحث بشيء من الجهد أن يعيد كثيراً من الأبيات إلـــى أصلها أو إلى مصدرها في الشعر العربي.. كما أنّه لم يكن متفرّداً على أقرانه من أهل الأندلس وإلا لَمَا أهمله التاريخ الأدبّي هذا الإهمال إلى اليوم... كما أنه لم تكن له فلسفة جديدة في الحبّ الإلهّي، فهو تابع لمن تقدّمه.. بل إن تعبيره عن هذا الحبّ الإلهي[١٠] لم يكن رقيقاً ولا جميلاً ولم يكن معبراً عن ذوبانٍ ما في حبٍّ إلهي كما زَعمت..

ولـــم يخلُ تقديم الباحثة من أغلاط ربما كانت مطبعية وذلك كقولها" وما يميز هذيـــن المرحلتيـــن" والصـــواب "هاتين" وكنقلها عن أزهار الرياض " وكان فيهم الشاعر المغلق" بالغين والصواب بالفاء(المُفلِق) ... وهناك أمور أخرى.

أقول بصراحة إنّ هذا الضرب من الدراسة والنقد يمكن أن يسمّى بالتبجيل النقدي أو الـــنقد التبجيلي كما يمكن أن يقال إنه (دَجَلٌ نقدي) أو (نقد دجليّ) وذلك لأنه لا مصـــداقية فـــيه ولا يلقـــي أي ضـــوء علـــى شـــعر الشاعر ولا يُسهم في تبيان خصوصيته... إنه محاولة للاختفاء وراء مقولات لا يستطيع كتّابها أنفسهم تفسيرها لأنها لا معنى لها في هذا السياق، ولا خصوصية لما تطلقه من الأحكام.

وعلى كلٍ ومهما يكن فإنّ إصدار هذا الكتاب قد أبرز شاعراً كان غائباً كلّ الغياب عن مجال الدرسات الأدبية، وقدّم نُصوصاً كانت مختفيةً منذ قرون قابعةً في بطـــن مخطـــوط نـــادر... وإذا كـــان التوفيق لم يحالف المحققة في التقديم للكتاب وإصدار الأحكام النقدية فيما أزعم، فإنه بلا شك قد حالفها في إصدار نصّ شعري كان مجهولاً، فلها بذلك فضل السبق والإحياء، وعلى الدراسين بعدها من المهتمين بشعر الأندلس أن يعتنوا بهذه النصوص دراسة وتمحيصاً ونقداً.

الهوامش

١- المعلومات استمدّت من مقدمة المحققة.

٢- هذه المصادر هي:

١- أزهار الرياض للمقري/ مطبوع.

٢- تحفة العروس ونزهة النفوس. التجاني.مطبوع.

٣- تحفة القادم لابن الأبار. مطبوع.

٤- الحســن والجمال لابن هذيل القرطبي(نقلاً عن ابن أبي الجلاب في روح الشعر) لم تذكره المحققة في المصادر والمراجع.

٥- رايات المبرزين لابن سعيد. مطبوع.

٦- كنز الكتاب ومنتخب الآداب لأبي اسحاق البونسي: مخطوط.

٧- لمــح الســحر من روح الشعر ورَوْح الشَّحْر. ابن ليون التجيبي/ مرقون بكلية الآداب بفاس.

٨- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد. مطبوع.

٩- المقتضب. لم يُذكر في قائمة المراجع والمصادر كتابٌ بهذا العنوان؟!!

١٠- نفح الطيب للمقري. مطبوع.

١١- الوافي بالوفيات. لصلاح الصفدي. مطبوع.

٣. المقدمة: ٣.

٤. المقدمة: ١٦.

٥. المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك. عبد العزيز حمودة – عالم المعرفة ٢٣٢- الكويت١٩٨٨.

٦. المقدمة: ٢٤.

٧. المقدمة: ٢٤.

٨. المقدمة: ٢٢.

٩. المقدمة: ١٧.

١٠. انظر ص٨٨ ق٢٦ وقد أبدت الباحثة إعجابها بهذين البيتين:

ولو أنّ قلبي فـــي يديَّ بلا هوىً ... لجُنّ، فما ظنّي به وهُوَ الحَشْوُ

وما سرّني أن أملك الأرض كلّها ... وأنّ فؤادي مـــن محبته خِلْـوُ